اصل الاعتقاد بوحدانية الله

من اوضح مزايا هذا العصر واجلّ مفاخرهِ توجيه نظر علمائهِ الى البحث عن الاصول في كل ما يتعلق بالشؤون البشرية وما يدخل دوائر العلوم على اختلاف اجناسها وانواعها وتعدُّد جهاتها ومناحيها . فلم يغادر اهل التحقيق والتنقيب من شعاب الاستقصاء ما لم ينضوا اليهِ الركاب ولا اغفلوا من مجاهل الاستقراء مضيقاً الاَّ سلكوهُ حتى تمهد العقاب وينجلي الغامض وتذلَّ الصعاب .

وفي جملة ما وقفنا عليهِ تقصّي الاعتقاد بالتوحيد عند اشهر الامم بالارض ونشوئهِ مع نشوء القوى العاقلة في الانسان من اصلٍ غاية في البساطة والابهام تتلبَّسهُ اوهام الحدس والترجيم حتى تجلَّت منهُ شمس اليقين واصبح حقيقةً علميةً عند ارسخ العلماء بل بديهةً عقلية بحكم جميع العقلاء

ولما كانت عمدة البحث في هذه المسائل الاستقراء فقد اجمع اكفاء المنقطعين الى درس عقائد الامم والشعوب من قبل زمن التاريخ على ما ايد الرأي المشهور ان لا امة على وجه الارض تخلو من الاعتقاد بقوةٍ او قوًى تفوق الطبقة البشرية تضبط امورها وتتولى شؤونها عامةً وخاصة حتى تفزع اليها وتعتمد عليها رغبةً او رهبةً

والذي يستلفت نظر المنصفين من علماء الطبيعة ان عقيدة التوحيد كان منشأها النظر الى الطبيعة نفسها حتى ان المشهور من قول سبنسر عن (القوة التي لا تُعرف) انهُ لا يفيد الاَّ ان الله سبحانهُ يجلُّ بذاتهِ وصفاتهِ عن دَرَك الادراك خلافاً لمن توهم في ذلك القول ارادة الكفر والإلحاد

اما بيان نشوء هذا الاعتقاد الجليل على ما انتهى اليهِ بحث المجتهدين فهو على وجه التلخيص

ان اول خاطر يمر في قلب الانسان الاعتماد على شيء هو قوةٌ خارجةٌ عنهُ بنى ذلك على انهُ وُجد في عالم يحوي قوًى تفوق قوى البشر وتسلط على حياتهم بحيث لا يستطيعون الى التصرُّف منها سبيلاً . ومهما يكن من اعتقاد الانسان الضعيف بقوَّة ارادتهِ واقتدارهِ على التغيير في مجرى بعض الحوادث والتبديل بالقليل من شؤونهِ فانهُ يعود اخيراً عودة العاجز الصاغر والخاضع الذليل لتلك القوى الفائقة ويرى انهُ تحت طائلة عقابها في كل ما يخالفها من فعالهِ . ثم يبدو لهُ بدليلهِ العقلي ان تلك القوى الخارجة عنهُ كانت قبل ان وُضع في مهدهِ وستبقى بعد ان يُدرج في لحدهِ . وعلى الجملة فان الانسان يُدرك بالفطرة ان الكون شيءٌ مستقل عنهُ اليهِ

انى ومنهُ يمضي وانهُ في ذلك المجيء وهذا المضيّ وفي كل ما يصدر عنهُ معتمد على شيء غير ذاتهِ

وهذه الخواطر البديهة في النفس البشرية عامة شاملة للناس اجمعين وليس بين فرق جوهري فيها بين الكبير والصغير ولا بين الانسان القديم الوحشي ولا بين الحديث المتمدن الانيس. نعم ان الاول كان عاجزًا عن تقرير خواطرهِ الساذجة وتحريرها في مثل هذا السبق كما يستطيع الثاني الاَّ ان المعنى بجوهرهِ واحدٌ في الانسانين كليهما. لان صورة هذا الوجود الذي نسميهِ بالعالم او الكون بما فيهِ من القوى البديعة النظام انما حصلت للانسان الحديث بعد مرورها على اطوار من تقليب النظر والاستدلال ولم تكن الاَّ نتيجة العلم القانوني الذي تكامل مدى هاتيك الادوار. ومع ان الانسان القديم لم يكن يرى من امور العالم المنظور الاَّ لمعةً من قبس بالقياس الى الحديث كان لديهِ عالم صغير على قدر ما كان لنفسهِ الصغيرة من مجال النظر ومبلغ المدارك والرغبات. فلم يكن يفوتهُ ان عليهِ واجبات يؤديها لتلك القوى التي تجلَّت عن ادراكهِ بسموها وجلالها. وكان يفقهُ ان مصدر جميع افعالهِ ارادة بشرية يكنها فؤادهُ. وجملة القول حتا ان فلسفة الانسان الاول في هذا الشأن لم تكن بعيدة عن فلسفة الانسان الحديث في جوهرها بعد ان انار لهُ ضياء العلم والتهذيب. وكان من امكان ذلك الانسان القديم ان يدرك ايضًا ان الباعث لهُ على العمل هو الرغبة يقودها العقل. وعلى نفسهِ قاس حال الشمس والريح والجمد والبرق وسائر المظاهر الطبيعية فتمثلها ذوات عاقلة فائقة في العظمة وجلالة الشأن وان لها معهُ علاقة السائد بالمسود

وقد درجت جرثومة هذه الفلسفة اللاهوتية من مهدها عند الاوائل واخذت بالنمو والانتشار فعمَّت شعوب العمور وترسخت اصولها ودامت قرونًا الى ما بعد ازمنة التاريخ ولم تطرح ثوبها هذا الخشن الاَّ تدريجًا حتى مرَّ الانسان على اطوار تمدنهِ وبلغ من شأنهِ ذراهُ. وما زلنا الى اليوم نرى اصول هذه الفلسفة متمكنة في نفوس الامم الدنيا في مراقي المدنية والقبائل الوحشية. ففي ميثولوجيا شعوب اليونان وبلاد الهند وهنود اميركا الشمالية وسكان جزائر البحر الجنوبي كانت تُمثَّل الشمس انسانًا يحمل القوس والنبال. والغيوم جبابرة من الطير. والعواصف تنينًا فاغرًا فاهُ. ويرى اهل التحقيق ان ليست حكايات الآلهة والابطال وسيَر الغيلان والجن والعفاريت الاَّ بقايا تجمَّعت من ميثولوجيا الطبيعة وقد بقيت اصولها وراء حجب النسيان ادهارًا حتى اماطها البحث الجديد وابرزها الى العيان

ثم ان تشخيص المظاهر الطبيعية ازداد رسوخًا في اذهان اسلاف البشر القدماء باعتقاد الارواح الذي يسوغ عدّهُ من اول ثمار الاجتهاد الفكري من باب الحدث والتخمين. ولقد

شهد السياح انهُ مع خلو بعض القبائل من الدين الدستوريّ لم تخلُ قبيلة من الاعتقاد بوجود الارواح . واصل هذا الاعتقاد على ما يرجح ان الانسان الاول تصوَّر بما استنتج من فلسفتهِ في الطبيعة ان لكل انسان ذاتاً قرينةً لهُ في الوجود (على مالا يزال اعتقاد بعض عامتنا الى اليوم) غير ذاتهِ تسمى بالذات الثانية . وبهذا يفسَّر ظهور الاباء والرفاق والاعداء في الاحلام بعد ان صاروا من سكان القبور . فكان النائم يزعم ان روحهُ في حلمهِ تلاقي روح احد اولئك الثانية فتجري معها حديث السلفاء او تشاركها في مأدبة الاقتراس . ومن هذا نشأ الاعتقاد بوجود عالم دائم من الارواح وهو عامٌّ عند جميع القبائل غير المتمدنة . والظاهر ان علة تعميمهِ ورسوخهِ هي منتهى مداركهم اجمعين . وعلى هذا الاعتقاد ايضاً كانت تبنى اوهام قبائل المتوحشين بتعليل الامراض العصبية كالهستيريا وداء النقطة والخيالات والاصداء حتى صور الوجوه والاشباح المنعكسة عن سطوح المياه الراكدة

ومن هذه الخطوة في الاعتقاد خطا الاقدمون الى الاعتقاد بكنهِ تلك الارواح في الريح والبرق والرعد حتى تمثلوا اشخاصاً ذوات نفوس متخلقة بما يشبه اخلاق البشر وافكارهم . والذي يؤيد حقيقة تولد هذا الاعتقاد من سابقهِ بالطبع كونهُ عاماً بلا استثناء عند جميع قبائل الارض في اول اطوارها . وكان مما استنتجهُ الاقدمون بالضرورة ان القوة التي تستاصل الاشجار وتسوق السحاب في عرض السماء لا بدَّ ان تكون ذات نفس تشبه نفس الانسان وان النار التي تلتهم الاكواخ شخصٌ ذو قوةٍ عاقلةٍ عاقب اصحابها باحراقها فينبغي لهم استرضاؤهُ بالذبيحة ودعاء الابتهال . والحاصل انهُ لم يكن لذلك الانسان الخشن القديم من محيدٍ عن اعتقاد النار مشاركة الانسان بوجود النفس وقوى العقل والادراك ولم تفرق فلسفتهُ بين الروح الانسانية والهيَّة النار

ثم تبين للباحثين ان الاوائل كافةً كانوا يعتقدون بخلود روح سيد القبيلة (او قرينة ذاتهِ) بعد الموت وبدوام عنايتها بشؤون القبيلة تردُّ عنها هجمات الاعداء وتثيب ابطال الوغى وتعاقب الخونة وانذال الرجال . فكانوا يترضونها باقامة الحفلات كما ترضى الرعية ملكها العلي الشأن ويعتقدون ان كل اساءة تقع من قبلهم كالتقصير في اداء العبادة او الهزيمة في الحرب كانوا يجازون عنها اما بسيل جارف او نار محرقة او مجاعةٍ شاملة ايذاناً بسخط ذاك السيد عليهم

وعلى هذا الوجه كانوا يشركون الارواح المتلبسة بقوى الطبيعة بارواح اسلافهم على ما يؤخذ من خرافات (سيثولوجيا) الاقدمين . ففي اساطير السفيدا ان البيريس او الآباء تسكن الجوّ مع ياما ابي البشر الاول عاكفةً على تدبير شؤونهم فتسوق اليهم غيوث الرحمة احياء

للزرع والضرع او تحبسها عنهم عقاباً لهم بالجدب والقحط. ومن عقائدهم بتلك الارواح انها كانت تلازم العواصف والرياح في حركاتها كما يحف جيش الحرس بالاله ڤودان جبار الصيد

وكان قدماء اليونان يعتقدون بان الجو الازرق (اورانوس) ابو الالهة والناس اجمعين. وكان مزج عبادة السلف بعبادة الطبيعة شاملاً لاقدم امم الارض . وقد بقيت لهذه العبادة السيادة المتحكمة في كثير من اديان الامم الوثنية مع تقلب صورها على مدى الازمان كما هو مشهور في ديانة اهل الصين واليابان وقدماء الرومان . الاّ ان الرومان في اواخر ايامهم اتخذوا الالهة المتحولة عن مظاهر الطبيعة معبودات لهم ايضاً مع الهتهم الخاصة في بيوتهم . وغير انهم كانوا يحترمون ايضاً الهة غيرهم من الامم المعلومة لهم حتى صارت عبادة هذه الامة الفريدة المقام في تاريخ التمدن عبارة عن مزيج من الاديان والعبادات المختلفة بحيث ادّى هذا الامتزاج الى تفانيها وتلاشيها . فتمهّد بذلك الطريق الى ظهور ديانة اوضح برهاناً واعلى سلطاناً نريد الخطوة القربى الى حقيقة التوحيد. ذلك ان الشؤون السياسية في امة الرومان كان لها حظ في اسباب ارتقائهم الى عقيدة التوحيد الحقيقي ناشئة عما سبقها من الاعتقاد بالارواح وتاليه الطبيعة في اطوار الانسان الاولى . وهذا دليل على ان التوحيد في نظر التاريخ الاجتماعي لم يرتقِ عن اصله — عبادة الطبيعة والسلف — إلاّ على سلم التدريج البطيء شان كل مظاهر الارتقاء

ومن ذلك كله نرى انهُ كان من الطبيعي لبلوغ الفكر البشري هذه المحجّة العليا من عقيدة التوحيد ان يدرك شيئاً من حقيقة السماء والارض وما بقي من مظاهر الكون . وقد تأتى مبلغ هذا الارتقاء وظهرت انوارهُ لامم التمدن قبل العصر المسيحي وطلع فجرهُ على عقول جماعة من عظام فلاسفة اليونان الراسخين المتبصرين حتى انهُ يقال ان مدارس الاسكندرية مدى قرنين قبل المسيح وقرنين بعدهُ كانت منارًا لمثل هذه المباحث الجليلة . وقال بعضهم ان ما ادركتهُ من تلك الحقائق الفلسفية بقي هو المعوّل عليهِ في ما بلي من القرون الى ايام الفيلسوفين العظيمين باكون وديكارت وان قادة العقول عند اليونان منذ اناكساغوراس وسقراط وافلاطون كانوا على الحقيقة من اهل التوحيد . فانهم ما عتموا ان اعملوا النظر في حقائق المظاهر الطبيعية حتى رأوا ان مثل الخلائق البشرية مصادرها . ثم على توالي الاستدلال اهتدوا من طبائع الوجود ووحدتها العامة الى وحدة خالقها وضابط شؤونها غير انهم بحكم النقص في كل بداية اسندوا اليهِ صفات طبيعية مع شيء من الصفات الانسانية

الاّ ان النظر العقلي لم يكن هو السبب الوحيد في الانتهاء الى التوحيد بل كان يشاركهُ ايضاً الاعتقاد بحماية الالهة التي نشأت عند قدماء اليونان بالارتقاء السياسي من عبادة السلف.

فحين كانت القبائل تنتظم امة سياسية كان ينشأ معها الاعتقاد بالالهة الخاصة لها او كان الاعتقاد بالله احد تلك القبائل يتغلب على غيره من شركائه حتى كان يؤول الامر الى اجتماعهم على اتخاذ الهًا واحدًا للامة كلها. قال بعض المحققين ان من الشواهد الجلية على ذلك ما آل اليه امر العبرانيين في انتهائهم الى عبادة الكائن السرمدي الحي القيوم (يهوه). قالوا ومن اشهر عقائدهم الاصلية على ما يؤخذ من توراتهم ما يشيد القول بتعدُّد الالهة الذي غلبت فيه عبادة السلف على عبادة الطبيعة. فقد كان للترافيم (والالهة الحامية للعيال) التقدم في بادىء الامر على الهة الطبيعة ثم غلبت عبادة هذه الالهة كالبعل ومولوك وغيره على الاولى. وكان عندهم ان (الوهيم) بصيغة الجمع خالق الكون وان بنيه يتزوجون بنات الناس على ما جاء في التاريخ السابق للطوفان وان الاله الحامي لهم يهوه احد (الالوهيم) ورب اجناد السماء. وكان من اعتقادهم فيه ان نبيهُ المختار يغلب بحوله وبمينه القادرة وذراعه المرتفعة لان الههم هذا اعظم من الهة الامم مجاورين بهم وانهُ هو الاله الحق وحدهُ ومن ذلك انتهوا الى توحيده وصار اسمهُ الاعلى علمًا على الوحدانية

وأُمة اليهود هذه كانت من ارقى الامم فطنةً وذكاءً فانهم منذ عهدهم الاول ادركوا شان الوطنية وفاقوا سائر الشعوب بشدة العصبية القومية والمبادي الادبية. وكان ما ادركوهُ من الاعتقاد بيهوه المنتشر في اسفارهم اسمى من سائر ما ادركهُ سواهم من امم الارض قبل المسيح. وكان من طبيعة الامران يتغلب هذا الاعتقاد تدريجًا في العالم الروماني على ما سبقهُ من تعدد الالهة. لكن لم يقرّ سلطان التوحيد العبراني على العقول ولم يحظَ باحسن القبول حتى جردهُ من ملابسات الخصائص الشعبية اليهودية يسوع الناصري واخرجهُ من قيود التحديد بولس الرسول. وهذا ما اردنا الوصول اليه من نشوء عقيدة التوحيد بالاستقراء وقد بقي من تاريخ ارتقائها وتحقيق صفات الوحدانية الذاتية من الوجه العلمي الفلسفي ما قد يهم الوقوف عليه لكننا اقتصرنا من هذا البحث على ما مرّ وربما عدنا اليه

دمشق الشام متري قندلفت